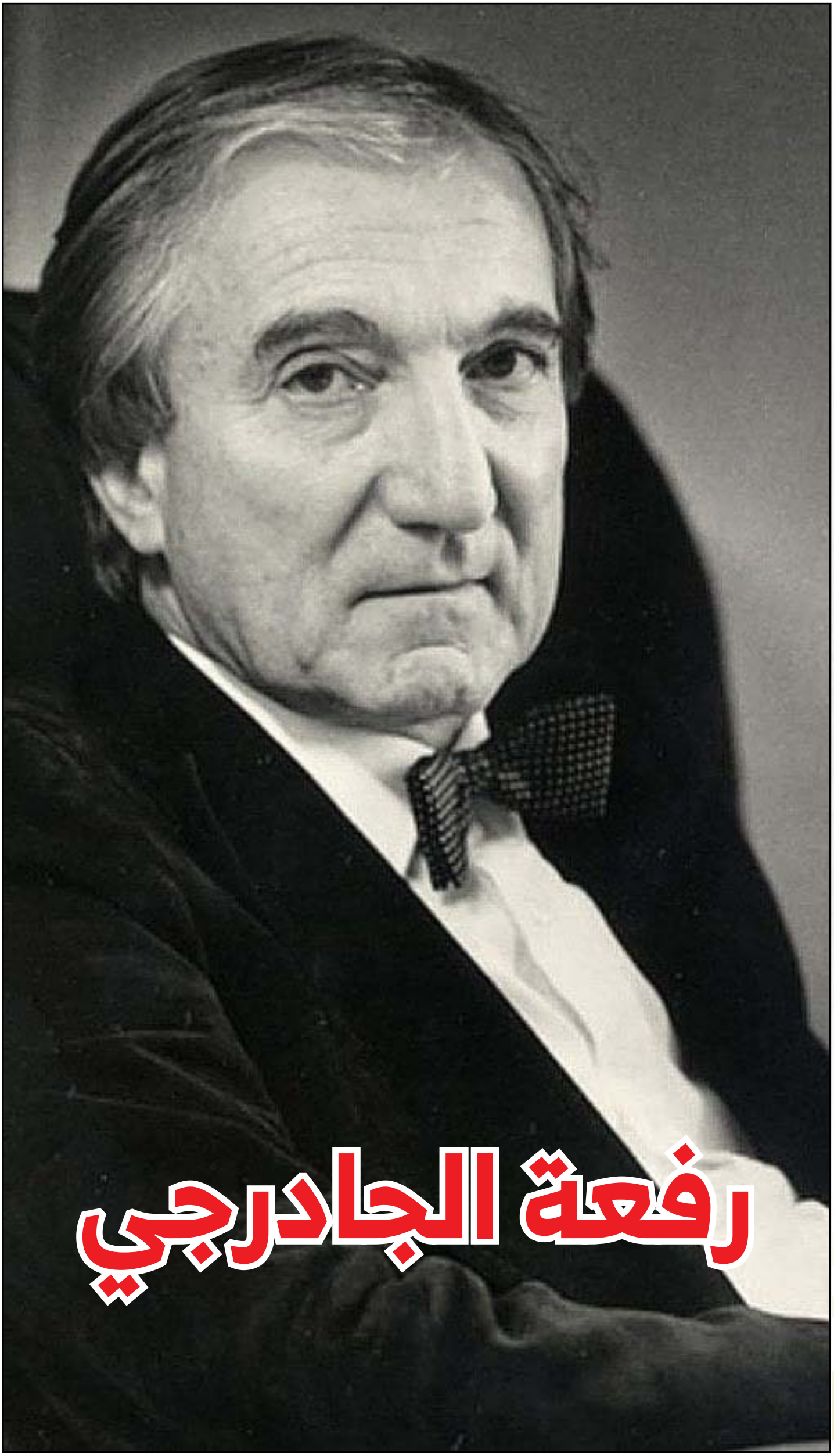

رفعة الجادرجي

مرآة الدهر

من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة

للإعلام والثقافة والفنون

www.almadasupplements.com

"22عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

رئيس مجلس الادارة
رئيس التحرير

العدد (6097) السنة الثالثة والعشرون
الخميس (26) شباط 2026

المعمار رفعة الجادرجي

بلقيس شرارة

منذ مئة عام ولد رفعة الجادرجي في السادس من شهر كانون الأول، وقد ولد في عائلة تختلف عن العائلات التقليدية في بغداد آنذاك. فقد كان والده لبرالي/ liberal التفكير ومنفتح على ما يحدث في أوربا من تطور علمي وتقني واجتماعي وسياسي.

كما كان لوالد رفعة هوايات متعددة، منها التصوير، وكانت علاقته حميمة بابنه رفعة، فقد أهدى له في السابع من عمره كاميرا، وبدأ رفعة منذ الصغر يأخذ الصور ويسجل ما يراه من خلال عدسة التصوير. كان شيئاً غريباً في تلك الفترة الزمنية وقليل من الناس يملكون الكاميرا، واستمرت هذه الهواية طيلة حياته وقد صور الكنائس والأبنية المهمة في انكلترا وفرنسا، كما كان له هواية في تصوير الغيوم، لكنه عندما عاد إلى العراق بعد أن اكمل دراسته في انكلترا، بدأ بتصوير الحياة اليومية الإجتماعية في العراق.

كما كان والد رفعة مشترك في بعض المجلات الغربية، مثل أخبار لندن/ London News، مجلة الجغرافية القومية / National Geographic Magazine، وشاهد في هذه المجلات صور حريق القصر البلوري في انكلترا عام ١٩٣٦، وقد هزه الحريق عندما شاهده في المجلة.

تعلم رفعة منذ طفولته ان للوقت أهمية فلا يضيع وقته، وكان يمتعض من الناس الذين لا يهتمون بالمواعيد والوقت لا يعني شيئاً لهم.

كما اثر والده عليه باهتمامه بالتوثيق، وكان يصوره كل سنة في عيد ميلاده، حتى بلغ العاشرة من عمره.

وفي سن المراهقة كان من بين هواياته المبارزة والركض، وفاز مرات عديدة في سباق المئة متر.

كان من بين اصدقائه قحطان عيوني، الذي درس العمارة في الولايات المتحدة واستمرت صداقتهما حتى وفاة قحطان في عام ١٩٧٠، وقد كتب عنه: "لم يكن قحطان عيوني صديقاً وحسب لمدة تزيد عن ثلاثين عاماً، بل عالمي وعاصرني وعاصرته في تطوير افكارنا، ثم صرنا معاً مهندسين معماريين وظل احدنا يؤثر بالآخر، فنتناقش ونتخاصم، حتى اضحى لكل منا دور في تطور الآخر، وبقينا صديقين متلازمين طوال تلك السنوات".

بعد ان انهى البكالوريا كان يملأ وقته بالمطالعة، وعندما قرر ان يدرس العمارة، كان يضطر الى الاستراحة أحياناً، فسأله والده ذات يوم لما لا تقرأ، أجابه انه اصيب بالتعب، فقال له: "ان جسم الإنسان لا يتعب من جراء القراءة لكن الذي يحصل هو ملل في الدماغ، فإذا ما تم التبديل وانتقل الدماغ إلى موضوع آخر زال الإعياء".

سافر رفعة إلى لندن وقضى ستة اعوام في مدرسة هرمسمث، وانسجم مع الطلبة والاساتذة، وحتى ان احد الاساتذة كان يقول له ساعدني على الغداء لتتحدث عما وصلت اليه في نظريتك. وكان أحد الأساتذة يقول لهم : "إن الإبداع يتكون من ٩٥٪ في المئة عرقاً و٥٪ إلهاما".

كما كان يلتقي بالرسام جواد سليم اسبوعياً، ويذهبان إلى احد المتاحف حيث يقف جواد وبجانبه رفعة يشرح له ما تعني هذه الصورة عندما رسمها الرسام، وقد ركز في زياراته على فترة Renaissance.

عاد رفعة في نهاية عام ١٩٥٢ إلى بغداد، وادرك مبكراً ان النشاط المعماري لا يستقيم جيداً إلا بالعمل الجماعي، وهو جهد عدد من المعماريين والمهندسين باختصاصات مختلفة. فأسس مكتب الإستشاري العراقي مع المعمار عبدالله احسان كامل والمهندس المدني احسان شيزاد و أرتين ليفون.

وبدأ رفعة منذ التصميم الأول في تصوير كل بناء من الأسس حتى يكمل البناء. وكان يؤمن بأن البناء الحضاري يؤلف النصف الأول في عملية الإنجاز، والنصف الثاني وهو الأهم، صيانته والمحافظة عليه باعتباره ذاكرة المجتمع، وسيكون امتداد لهذه الذاكرة في الزمن. وكان يؤمن من ان الشعب الذي لا يتمكن من من صيانة إبداعه هو شعب لا يمتلك ذاكرة ليسَخرها في المزيد من البناء الحضاري، وبأن الذاكرة هي الأساس في تكوين وجدان المجتمع.

والتصميم بالنسبة له هو ربط الشكل بالزمان والمكان، اي ان أي تصميم هو حالة مرتهنة بالزمان والمكان. ولذا جابه رفعة حرارة المناخ في بغداد، وكيف عليه أن يجد الحلول لهذا الموضوع.

كما إن العمارة هي كظاهرة إجتماعية ذات كيان مادي حقيقي، وهي حصيلة التناقض الجدلي بين المطلب الإجتماعي من جهة والتقنية المعاصرة له من جهة أخرى.

كما كان رفعة من المعجبين جداً بما قامت به حركة الباوهاوس التي كان رئيسها ولتر كروبيوس في الثلاثينيات من القرن الماضي، "حيث تجمع فيها فنانين ومعماريين قادوا تجارب وممارسات متقدمة في توليد اشكال معمارية وتصنيعية متوافقة مع المكننة، ولا تزال تلك التجارب تؤلف قاعدة الحداثة".

عندما وصل بغداد ألقى بعد فترة القبض عليه وأفرج عنه بعد شهر، ثم انتقل من مجلس الإعمار إلى مديرية الأوقاف. كان في تلك الفترة يجتمع بجماعة "الرواد" من الفنانين والرسامين والمعماريين ويدور البحث عما يجب عليه أن يكون طابع الفن في العراق، وساهم بدوره إذ كان يفكر فيما يجب أن تكون عليه العمارة في العراق.

وطرح سؤالين: "هل نسير في ركاب الغرب، وننهج نهجاً يقلد الرواد الأوربيين، أم نسعى في أن نجد لذاتنا نهجاً يعبّر عن خصوصيتنا، أي نجد لأنفسنا طريقاً محلياً يخصنا ويعبّر عن المجتمع العراقي، وكان رفعة والرسام جواد مؤيدين لهذا الإتجاه، أما الرسام محمود صبري فكان يؤمن من انه يتعين أن يكون للفن دور في التطور السياسي في العراق.

في نهاية عام ١٩٥٣ تعرفتُ على رفعة وفي عام ١٩٥٤ اعلنت الخطبة، ولم يكن زواجاً تقليداً وإنما كسرنا جميع التقاليد المتعارف عليها، فلا بدلة عرس ولا حفلة زواج، وحتى لم نلتقط لنا صورة بهذه المناسبة.

وجدت رفعة ان له اسلوبه الخاص حتى في الملابس التي يرتديها، فكان لون البيجامة أبيض دائماً، كما حدد لون الطقم الذي يرتديه بثلاثة ألوان، الأسود والكحلي أو الرصاصي الغامق. وكان يهتم بآداب المائدة والدقة في وقت تقديم الطعام، بالإضافة إلى هواية التصوير والقراءة، كما كان دقيق في نوع استعمال الورق ولونه في المكتب.

وقد صمم دارنا في حديقة دار والده، وكان منشغلاً آنذاك كيف يحل مشكلة الحرارة ووهج الضياء، أي معالجة البيئة والمناخ، لذا استعمل في تصميم دارنا الرواق الهوائي والستارة الجدارية والمشبك الحديدي، ووضعنا في الصيف قماشاً بين مربعات السكرين، وكان يرفع في فصل الشتاء، لكي تدخل الشمس إلى الغرف.

وارتبط اسم رفعة بمشاريع كثيرة خلال الفترة التي قضاها في بغداد، وبعد ثورة ١٩٥٨، بعث عليه رئيس الوزراء عبدالكريم قاسم وطلب منه تصميم ثلاثة أنصبة، نصب الجندي المجهول في ساحة الفردوس ونصب أربعة تموز عند "حديقة الأمة" ونصب الحرية. لم يطل عمر نصب الجندي المجهول فقد هدم من قبل صدام حسين رئيس الجمهورية آنذاك، لكن نجى نصبيّ اربعة عشر تموز والحرية.

بعد انقلاب ١٩٦٣ وقتل عبد الكريم قاسم، قدم رفعة استقالته من الوظيفة في اليوم التالي، كما أصدر مرسوم بتجميد امواله ومنعه من السفر إلى خارج العراق. كما سحبت بعض المشاريع التي كانت محالة على مكتب الإستشاري العراقي التي لم تكن قيد التنفيذ، كما جُمدت انا وفصلت من الوظيفة.

وبدل من ان يهيمن عليه اليأس فقد اتصل ببعض الفنانين والمعماريين واسسوا "الجمعية البغدادية". وكانت الجمعية رائدة في العراق، فلم تكن نادياً اجتماعياً أو مؤسسة ثقافية فحسب بل اصبح بالإمكان مشاهدة الأفلام الثقافية العالمية والإستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية والمقامات العراقية، كما شملت القاء المحاضرات.

كما اسس في تلك الفترة معرض "آيا" ومعملاً لإنتاج الأثاث وقام بتصميم تلك الأثاث، وعرضت في قاعة في بناية حسيب صالح. كما قام في تصميم الأبواب والسقوف مثل سقف المجمع العلمي وغرفة كامل الجادرجي وغيرها.

ومنع استيراد النبيذ في تلك الفترة، ففكر رفعة في عمل النبيذ بمساعدة أحد الخبراء الإيطاليين. هذا بالإضافة إلى أنه اصبح يداوم في المكتب صباحاً ومساءً.

وكان أي تصميم يقوم به في تلك الفترة، يحاول ان يجمع بين هوية المكان والحداثة، وهذا ما قام به عندما اشترى ارض فيها بناية خربة في لبنان تطل على البحر، فقبل ان يصمم الدار، درس البيوت القديمة في لبنان وطريقة استعمال الحجر. وقال للمعماري عاصم سلام الذي ساعده في شراء الأرض، بعد ان صمم الدار، " انا هويتي عالمية، لأنني اشتغلت في العراق والعالم العربي، فحاولت أن اجمع بين التراث والحداثة، لكن لم أسمح للتراث أن يهيمن عليّ، إنما كنت أقتطف ما أشتهي... الهوية الفعّالة تأخذ التاريخ وتعيد تنشيطه بشرط أن يتوافق مع الحداثة وإن لم يتوافق فتهمله.".

في تلك الفترة في عام ١٩٦٨ توفي والده، وشعر رفعة بفراغ بموته، ولم يستطع ان يتلافى الصدمة إلا بعد أن كتب عنه كتاب "صورة أب" وسجل تلك المرحلة حتى يومه الأخير.

كان يود ان يصّور موكب الجنازة عندما نقل النعش إلى الحضرة الكيلانية، ولكنه امتنع عن ذلك لأن المجتمع لا ينظر إلى التصوير الفوتوغرافي بأنه توثيق، بل هو مخصص لمناسبات الفرح.

في عام ١٩٦٨ أي بعد وفاة والد رفعة بفترة قصيرة قام حزب البعث في الإنقلاب، ورفع منع السفر عن رفعة، فسافرنا إلى اليونان. وعندما عدنا إلى بغداد، أمر متصرف بغداد في هدم بناية بستان الفحامة، وهذا البناء الذي صممه رفعة لم يطل عمره أكثر من خمس سنوات. كان رفعة يدرك منذ البداية، أنه بمرور الزمن ستزول معالم كثيرة إن كانت دور أو عمارات صممها، وهذا أول الغيث، عندما شاهد معاول الهدم تنقض على الجدران والأقواس التي صممها.

كان رفعة يصور اعماله من بداية الأسس حتى تكتمل البناية، لأنه يعرف جيداً أن العقلية السائدة هي عقلية بدوية، بعيدة عن احترام الحرفة.

في نهاية عام ١٩٧٨ عدنا من النمسا، إذ القى رفعة محاضرة في مدينة إنزبروك وعرض لأعمال، وأخرى في العاصمة فينا. في اليوم الثاني من وصولنا، ألقي القبض عليه، وسيق إلى بناية المخابرات وغاب في دهاليزها.

مرّ إحدى عشرة يوم ولا ندري إن كان ما زال حياً، حتى سمح له بالتلفون، وتكلم معي ربما دقيقتين فقط، لكن خلال هذه المدة القصيرة توصلنا إلى إيجاد شفرة بيننا، فكنت أفهم عليه ما يريد وهو يفهم عليّ أين وصلنا في تتبع قضيته.

وكان يسأل نفسه عن الصدفة والمحنة اللتين يعاني منهما. وكان يكرر دائماً السؤال وهو في ذلك الظلام.. "واقول ما هذه الصدفة، واعلم ان الصدفة لا تختار ولا تحدث بعقل أو بتخطيط وإنما صفتها العفوية في العَينة، في التوقيت والإنتقاء".

وبعد صدور الحكم عليه مؤبد، فصل من نقابة المهندسين، بدل الدفاع عنه من قبلهم. وزرته في السجن بعد خمسة أيام، وسلمني قائمة بالكتب التي يود أن يقرأها، وقضيت فترة وجوده في السجن ادوام في المكتب لكي احضّر له المواد عند المقابلة. واستغل وقته حتى في السجن، وقد قرأ مئة وستين كتاب وقد انهى كتابة كتابين ونصف في السجن. وقرر ان يترك التصميم ويقضي معظم وقته في الكتابة.

وبعد ثمانية عشرة شهر اعفى صدام حسين عنه، وطلب منه إعادة بناء مدينة بغداد، بسبب أن مؤتمر عدم الإنحياز سيعقد في بغداد. قضى عامين في بغداد، دعا رفعة اهم المعماريين العالميين، وقد نُفذ عدد قليل من الأعمال، بسبب الحرب الإيرانية العراقية التي استمرت ثمان أعوام.

وقبل سفرنا بشهرين هدم نصب الجندي المجهول بقرار من صدام حسين رئيس الجمهورية آنذاك، وكان وداعاً مؤلماً لرفعة قبل سفرنا إلى الولايات المتحدة، وقف رفعة وأخذ صورة مع المقاول المسؤول عن هدم النصب. كان يعتقد اينما كان المسؤولون في العالم العربي لا يؤمنون بالمحافظة على التراث، لأن العقل العربي ليس لديه مفهوم للتاريخ والتراكم التاريخي، ولهذا لم نكتب تاريخنا بشكل علمي، ولا نملك وثائق عن وجودنا الافيما ندر"، لذا كان رفعة منذ البداية، كلما بدأ بمشروع، كان يبدأ بتصويره منذ بداية الأسس حتى ينتهي المشروع، إن كان بيتاً بسيطاً أومشروعاً ضخما، لأنه عرف منذ البداية أن اعماله ربما زائلة ولن يبقى منها إلا القليل بمرور الزمن.

كان نصب الجندي المجهول هو ثاني تصميم من تصاميم رفعة الذي هدم أمام ناظريه، فالتصميم الأول كان مأوى بناية الفحامة، وكان وداعاً مؤلماً له، فقد ترك العراق بعد شهرين.

سافرنا إلى الولايات المتحدة وقرر رفعة التفرغ إلى الكتابة، وفكر في الكتابة عن تراتيبية الجلوس واختار دار جده "بيت عارف آغا"، وخاصة بعد أن تعمق في تلك الفترة في دراسة الأنثروبوجيا. وكانت نظرته نظرة أنثوربولوجية حتى عندما كان يصور في أنحاء العراق، وكان يدعى أحياناً إلى داخل البيوت التي صورها من الخارج، وعندما صور دار جده عارف آغا، قبل أن يهدم، عاد به الذاكرة الى طفولته في تلك الدار عندما كان يذهب مع والدته لزيارة بعض اقاربها.

لم يتحدد رفعة بالمؤثرات على أعماله بمنطقة أو بكلشر معين، لكنه يقول من أنه تأثر بكثير من المعماريين والرسامين والنحاتين في مختلف العصور ومن مختلف الثقافات العالمية إن كان في الشرق أو الغرب.

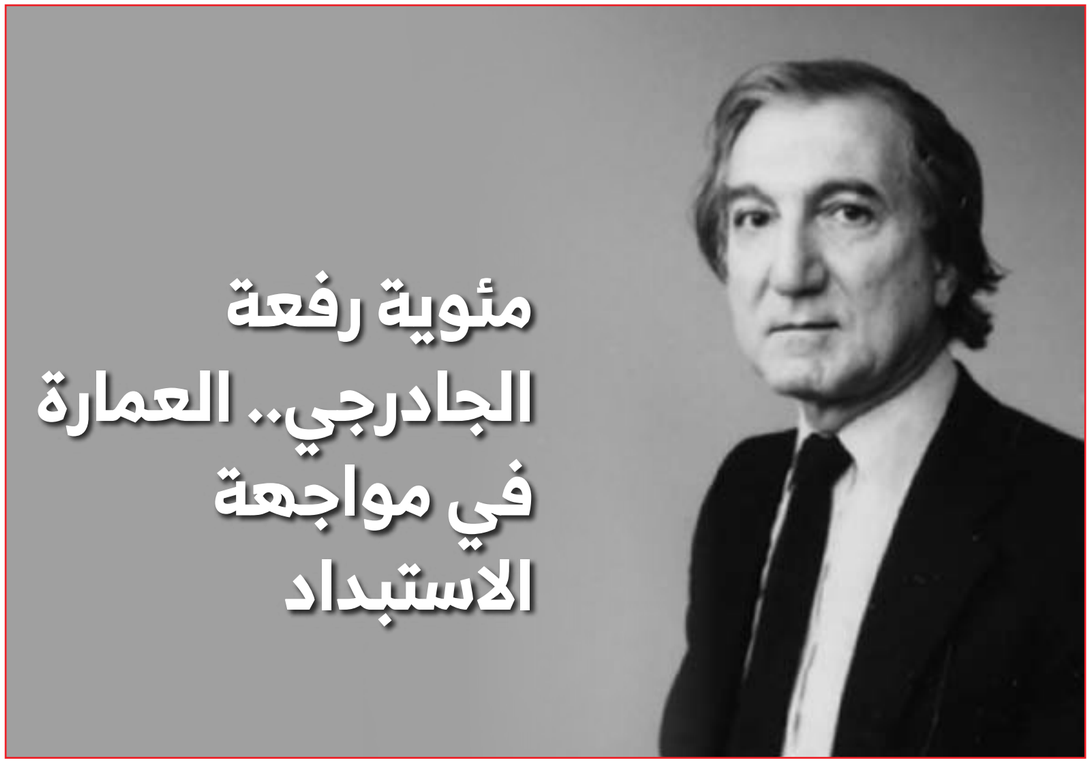

مئوية رفعة الجادرجي.. العمارة في مواجهة الاستبداد

محمود منير

لم يجد المعماري العراقي رفعة الجادرجي الذي تمر مئة عام على مولده، لحظة وصوله إلى سجن أبو غريب بالقرب من بغداد بعد الحكم عليه بالمؤبد ومصادرة أمواله وفصله من نقابة المهندسين، إلا الكتابة حول العمارة التي امتهنها عقوداً قبل أن يعتقل بتهمة الخيانة العظمى لبلاده، بسبب وشاية كيدية بقي الكثير من تفاصيلها غامضاً. محنة عصيبة أنتج خلالها مُؤلفَيه "صورة أب" وتتبّع خلاله سيرة والده المحامي ورجل السياسة كامل الجادرجي، و"شارع طه وهامرسمث"، ومعظم أجزاء كتاب "الأخيضر والقصر البلوري".

حدث ذلك عام ١٩٧٨، لكن المفارقة أنه قضى عشرين شهراً ثم أُفرج عنه لأن صدام حسين استدعاه ليعمل مستشاراً في أمانة العاصمة ويُنفذ مشاريع تجميل بغداد، التي من شأنها أن تُخلّد "اسم الرئيس في التاريخ" كما بُلّغ حينها، مع تأكيد عدم وجود سقف مالي للإنفاق على هذه المشاريع. أيقن الجادرجي الذي بدأ العمل بمساعدة معماريين غربيين بأن عليه أن يغادر العراق قريباً، وهو ما فعله بعد عامين، لعدم قدرته على التكيف مع نظام شمولي. العلاقة المتوترة مع السلطة تضيئها كتبه وتنظيراته التي قدّمها في محاضرات ومقابلات صحافية، وفي سيرته التي كتبتها رفيقة دربه بلقيس شرارة.

السلطة والعمران

في كتابه "دور المعمار في حضارة الإنسان"، يشير الجادرجي إلى أنّ الأنظمة العربية بعد الإستقلال عطّلت عبر التسلط والرقابة والعنف التقدم الإداري والمعرفي والتسلية التي اكتسبها المجتمع، من دون مقاومة فعالة من قوى المجتمع المدني، ما دفع إلى إحباط الفكر المتعلم والمثقف وإبعاده عن هموم المجتمع، ومنها العمارة التي أحبطت نخبها وذهب بعضها إلى ابتكار أشكال غير عقلانية. موقف لا يعبّر عن انحياز سياسي معين، وإن تشكّل نتيجة نشأته في عائلة أشار إلى أدوارها النضالية عدد من الدارسين، لكنه يعكس رؤية متجذرة ضدّ السلطوية سواء أكانت من مصدر علماني أم ديني، تبناها نمط حياة يكاد يشبه نماذج استثنائية من الزهّاد والنسّاك في ثقافات متعددة. ومن دون فهم للسياق الذي راكم فيه تجربته، ربما يصعب تفهم بعض آرائه الصادمة، ومنها قناعة مبكرة تشاركها مع زوجته التي ارتبط بها عام ١٩٥١ بعدم الإنجاب، لأنّ البشرية لا تحتاج مزيداً من الأفراد لتخريب الأرض، أو تركه وصية بحرق جثته بعد الموت، حتى لا يدنّس الأرض بجسده.

لا يمكن أن يُعاش الحاضر بمتخيّلات الماضي وتمجيده؛ عبارة لم ينفصل معناها بين حياة الجادرجي الشخصية ومنظوره للعمارة باعتبارها حواراً فاعلاً ومنتجاً بين مصنّع ومتلق، فإذا ما أُنتجت عمارة "قبيحة" فإنها ستلقي الكآبة على ساكنيها، بينما يحظى قاطنو العمارة الجميلة بحياة هانئة وآمنة، وعلى الفكر المعماري العربي توليد أسس معمارية متوافقة مع ماضيه وحاضره تؤهله لبناء مقومات المستقبل. ورأى أن هناك معوقات تغيّب التحليل العلمي للفن المعماري العربي الذي يُختزل بمصطلحات مثالية حول الإبداع والإحساس وجمال الشكل، وأن الفكر الكامن وراء ذلك لم ينفض عنه بعد هيمنة السلطة متمثلة بالدولة والدين.

وركّز الجادرجي على الأنظمة المستبدة التي سادت في المنطقة العربية منذ السبعينيات، و"سلبت الفرد فرصة التهيؤ لمواجهة متطلبات المعاصرة والتفاعل معها تفاعلاً مناسباً"، وهو ما أدى إلى إرباك في الهوية وأخذ الفكر العربي في البحث عن هوية جديدة تمكنه من استيعاب المتغيّرات في طريقة معيشته، عبر العودة إلى مرجعيات تقليدية غيبية يحتمي وراءها، واندفع العديد من المعماريين إلى نهج مستمد من تلك المرجعيات، بحسب كتابه "في سببية وجدلية العمارة"، الذي يلفت فيه إلى أن هذا السياق فرض سؤالاً محيراً حول إمكانية التعامل مع ما يسميه "رصيد السلف"، أي التراث. داعياً بدوره إلى "اعتماد نهج عقلاني يستند إلى مرجعية مادية الرؤية"، ما يعني إدراك بنيوية العمارة التي تقوم على أن الشكل ما هو إلا حصيلة للحركة في الإنتاج، بينما ينطلق النهج المضاد الذي يعتبر الفكر معطى إلهياً، من أن الشكل حرّ وخارج متطلبات الإنتاج التي تمر بأربع مراحل: الرؤية لشكل العمارة بما يرضي الحاجة الاجتماعية، ثم تنفيذها عبر مصنّع يطوّر الرؤية أو يحسنها بالاستناد إلى معارفه، لتبدأ بعدها عملية التلقي التي تتنهي بتكوين موقف فكري تجاه كفاءة وصلاحية ما جرى تصنيعه، يُستفاد منه في تشكيل الرؤية من جديد.

مآلات مأسوية

لا تنفصل هذه الخلاصات الفكرية عن نشأته في أسرة بغدادية أرستقراطية تلخص تفاصيلها المآلات المأسوية التي تعرّضت إليها عائلات كوّنت النخب المدينية المتعلمة والمؤمنة بالتحديث في عدد من الحواضر العربية بعد جلاء المستعمر، فجدّه رفعت أول رئيس بلدية لبغداد في أواخر الحكم العثماني، ووالده كامل أحد رموز الحزب الوطني الديمقراطي الذي أيّد انقلاب ١٩٣٦ لمعارضته فساد ودكتاتورية رئيس الوزراء آنذاك نوري السعيد، لكنه سرعان ما تخلى عن منصبه وزيراً في حكومة الانقلاب لأنها سارت على خطى سابقيها، ما جعله رافضاً لجميع الانقلابات العسكرية في العراق والمنطقة.

في هذا البيت، تعلم رفعة أن الديمقراطية ليست مجرد نظام حكم تشرعنه إرادة الشعب، إنما هي نمط حياة متكامل يمنحه حرية اتخاذ جميع قراراته، باختيار دراسة العمارة في كلية هرمسميث بلندن، والاقتران بزوجة، وكذلك عدم فرض تعاليم دينية واجتماعية عليه شريطة احترام الآخر، وربما الأهم من ذلك كله التعبير عن الذات بصدق وجرأة والإيمان بمعنى للوجود يترجمه التزامٌ بالمسؤولية والعمل.

تعلّق الجادرجي الطفل بالكاميرا التي ورثها عن أب أولع بتسجيل الحياة اليومية في مدن وأرياف العراق في فترة شهدت تحولات عدة، لكن عدسة التصوير التي وثّق بها الابن جمالية المكان اضطر أن يستخدمها لتحفظ آخر الصور لواحد من أهم تصميماته التي نُفّذت زمن عبد الكريم قاسم؛ نصب الجندي المجهول، بعد أن قرّر صدام حسين هدمه ليمحو رمزية مرحلة بأكملها، واستبدل بتمثال له أزيل مع احتلال العراق سنة ٢٠٠٣. تناول المعماري كاميرته حين علم بقرار الهدم عام ١٩٨١ وذهب إلى موقع النصب في ساحة الفردوس وصوّر الضربات التي نهشته وتركته ركاماً، والتقط صورة له أخيرة بجانبه، لكنه عبّر عن فقده بعبارات مؤلمة وبليغة بعد نحو أربعين عاماً، حين قال في مقابلة تلفزيونية إنه يعلم أنّ أوابد حضارات بلاده على مدى آلاف السنين هُدمت أو تشوهت، ولن يكن مصير تصميماته المعمارية أفضل منها، لذلك دأب على أن يصوّر كل تصميم له منذ لحظة ولادته حتى تنفيذه ثم الهدم.

رفعة الجادرجي.. استرجاعاتٌ لأفكار فيلسوف معماري

لطفية الدليمي

ليس كتاب (رفعة الجادرجي: حياة غنية حافلة بالانتاج) الذي نشرته دار المدى عام ٢٠٢١ هو الكتاب الاول الذي كتبته زوجته بلقيس شرارة بشأن بعض الجوانب السيرية من حياة المعمار العراقي الراحل رفعة الجادرجي؛

فقد سبق لها أن نشرت كتاباً بعنوان (هكذا مرّت الايام) ونشرته دار المدى أيضاً، وضمّ تفاصيل شخصية أكثر من التفاصيل المهنية والانشغالات الفكرية لرفعة الجادرجي. لن ننسى بالطبع مشاركة بلقيس شرارة زوجها في الكتاب المشترك (جدار بين ظلمتين) الذي تناوبت فيه بلقيس مع زوجها حكاية بعض جوانب حياة كل منهما في الأيام التي قضاها رفعة معتقلاً ومن ثمّ سجيناً في العراق. جاء الكتاب الاخير ليكون تجميعة من آراء وكتابات الجادرجي المتناثرة في كتبه المنشورة؛ وبالتالي يمكن وصف الكتاب على أنه تذكرة بأعمال الجادرجي وتحفيز للقارئ غير المطّلع على فكر الجادرجي وفلسفته في الحياة والعمارة ليبحث أكثر ويقرأ باستزادة في المصادر الاصلية.

كتبتُ غير مرّة أنّ العمارة – ومعها الفنون التشكيلية – كانت بوّابتنا الحقيقية إلى الحداثة؛ ومن هنا أهمية معرفة الدور الطلائعي الذي لعبته العمارة في تشكيل حياتنا الثقافية العراقية والعربية. ربما سيكون مثيراً لو عرفنا أنّ بعض المنظّرين الحداثيين زاوجوا في كتاباتهم، وببراعة مشهودة لهم، بين الحداثتين الادبية والمعمارية. من هؤلاء، على سبيل المثال، تشارلس جينكز Charles Jencks الذي توفّي قبل سنوات قليلة.

شهدت بغداد منتصف خمسينيات القرن الماضي نهضة معمارية مبتكَرة؛ إذ أنّ المداخيل النفطية المتزايدة التي وجّهت حركة مجلس الاعمار نحو المشاريع الستراتيجية دفعت الحكومة العراقية لطلب خدمات أعاظم المعماريين العالميين (فرانك لويد رايت، والتر غروبيوس، لو كوربوزييه،،،،،). وجد رفعة نفسه – وهو لما يزل شاباً متفجّراً بالطموحات وعائداً من كلية هامر سمث البريطانية بعد إكمال دراسته فيها – في خضمّ هذا الدفق المعماري المبشّر بانطلاقة نهضوية هائلة. إنّ دراسة حياة رفعة الجادرجي والتفكّر الهادئ في تفصيلاتها المتشعبة على الصعيدين الفكري والمهني إنما هي دراسة لانطلاقة الحداثة في العراق – تلك الحداثة التي ألت لاحقاً إلى الوأد في قاع الاصوليات المحلية والمستوردة.

ثمّة جانب آخر في حياة رفعة الجادرجي يستوجب الاشارة. رفعة ليس معماراً فحسب بل فيلسوف معماري من الطراز الأوّل. وإذا ماقرأنا مؤلفاته العديدة (دور المعمار في حياة الانسان، في جدلية وسببية العمارة، شارع طه وهامرسمث،،،) فسندهش لقدراته الفلسفية من جهة، وبراعته في تعشيق العمارة مع المناشط الانسانية والمعرفية الاخرى. لغة رفعة في مؤلفاته متفرّدة، وطريقة نحته للمفردات العربية مقترنة بجماليات خاصة به، مثلاً هو يكتب عن (الكلتشريات) ويقصد بها الثقافات Cultures. لماذا لم يكتبها ثقافات؟ واضحٌ أنه قصد بكتابة مفردة كلتشريات صياغة جمالية ومفاهيمية لم يشأ لها أن تحيل إلى مفردة (ثقافات) الشائعة. هكذا يجب أن نقرأ رفعت الجادرجي: قراءة متأنية مدققة تتابع كل التفصيلات الصغيرة وتحاول قدر استطاعتها كشف المخبوء مما يجول في عقله. أظنّ من المناسب في هذا الشأن أن أشير إلى حقيقة غائبة عن كثير من العراقيين والعرب المحبين لأعمال الجادرجي: عندما إلتحق الجادرجي بجامعة هارفرد عقب مغادرته العراق بعد إتمام إلتزاماته بمشروع التطوير الحضري لشارع حيفا عام ١٩٨٢ إنضمّ إلى قسم العمارة. هذا شيء يبدو طبيعياً للغاية؛ لكنّ رئيس القسم أخبره ذات يوم أنّ محاضراته ذات طابع فلسفي رفيع قد لايناسبُ طلبة القسم، وأنّ من الأفضل أن يكون أستاذاً في قسم الفلسفة، وهذا ماحصل. أمضى رفعة عشر سنوات في قسم الفلسفة بجامعة هارفرد، ثمّ إنتقل بعدها أستاذاً في قسم العمارة والتخطيط الحضري بمعهد ماساتشوستس التقني MIT الشهير الذي لايبعد كثيراً عن جامعة هارفرد؛ فالاثنان يتجاوران في مدينة بوسطن الامريكية. قضى رفعت ست سنوات في المعهد ثم غادره ليقيم في لندن.

سأنتقي في الفقرات التالية من كتاب (رفعة الجادرجي) مقاطع أراها ذات قيمة دلالية خاصة، وطموحي أن تساعد هذه الفقرات في الكشف عن جوانب مهمّة في حياة رفعة الجادرجي والحياة العراقية بعامّة. أتطلّع أن تكون هذه الاستذكارات دافعاً للقارئ ليعود لقراءة مؤلفات رفعة الجادرجي بعقل منفتح وشغف فلسفي لايعرف الخفوت.

(كانت مظاهر الحرب " العالمية الثانية " وماعانته إنكلترا من قصف وتدمير البنى التحتية بارزة في كلّ مكان، كما إستمرّوا في تقنين المواد الغذائية وتوزيع المؤن والاطعمة الرئيسية من السكّر والدهن والمعكرونة شهرياً، وأخبرني رفعة أنه حتى البيض كان من جملة المأكل التي من الصعب الحصول عليها؛ فكانت عائلته تبعث له طبقة من البيض تحوي ٣٠ بيضة لكي تكفيه طيلة الشهر بواسطة الخطوط الجوية العراقية لكنه كان يوزّعها على أصدقائه من التلاميذ ولايُبقي له إلاّ عشر بيضات....) (ص ٤٦).

(لم تكن علاقة رفعة بأستاذه وينستون ووكر Winston Walker علاقة طالب بأستاذ وإنما علاقة صديق محاور في مختلف مجالات العمارة، كما كان رفعة معجباً بأسلوبه في التدريس. كان يقول: له أسلوب فذ في التدريس؛ فإن وجد الجو ملائماً طالب منا نحن التلامذة الخروج معه إلى خارج المدرسة فيتجوّل معنا في الشوارع والمتنزهات ويأخذ بإبداء الآراء التفصيلية عن كل شيء تقع عليه عينه من كراسي الحدائق إلى ملابس النساء؛ بل حتى إلى أساليب مشي المارة....) (ص ٤٩).

(وبعد بضعة أشهر من تعيينه جاءه شخصان أثناء الدوام الرسمي وألقيا القبض عليه، وسيق إلى دائرة الامن ومن ثمّ إلى معسكر الرشيد، وقضى شهراً في الموقف بتهمة أنه كان في إنكلترا منتمياً إلى الحزب الشيوعي البريطاني، وهي تهمة ملفقة؛ فلم ينتم رفعة طيلة حياته إلى منظمة حزبية، بل حتى أنّ بعض أعضاء الحزب الوطني الديمقراطي عندما عاد من إنكلترا طلبوا منه أن ينتمي إلى الحزب فأخبرهم أنه يفضّلُ ألاّ ينتمي إلى أية جهة سياسية، وظلّ مستقلاً في موقفه طيلة حياته....) (ص ٧٢).

(كنتُ في كثير من الاحيان أترك مقرّ عملي وأذهب إلى أحد الخانات القديمة لأختلي فيه مع نفسي، وغالباً ماكنتُ أذهب إلى جامع " القبلانية " لأنسى هناك المنازعات الثقافية والمعارك الوظيفية التي كانت تضيّ بها شعبة الهندسة في دائرة الاوقاف.....) (ص ٧٥).

(كانت إستراحة القهوة تبدأ من الساعة الحادية عشرة حتى الحادية عشرة والنصف صباحاً، وهي فترة الاجتماع بالمعماريين وبعض المقاولين في المكتب " الاستشاري العراقي "، كما كانت فرصة لتبادل آخر المستجدات المحلية والعالمية إن كان في مجال السياسة والفكر والرياضة إضافة إلى الاخبار الاجتماعية والثقافية..... كان رفعة يجلب القهوة من الخارج، كما أدخل أكياس الشاي الانكليزية التي كان يجلبها عند عودته من سفره، وأصبح تقليد استراحة القهوة يترك آثاراً إيجابية عند جميع المشاركين.....) (ص ٨٧)

(مرّ في تلك الاثناء المعمار الدانماركي يورغن أوتزن في بغداد ليومين ليتابع سفره إلى أستراليا، وطلب التعرّف على رفعة؛ إذ كانت دار السفارة الدانماركية ملكاً لعمّ رفعة " رؤوف الجادرجي " حيث أقام فيها أوتزن..... فالتقى به رفعة ودعاه إلى دارنا، وعندما سافرنا إلى الدانمارك دعانا للإقامة في داره لمدة أسبوع، وتوطّدت العلاقة بيننا...) (ص ١١٤).

(كان رفعة الجادرجي المؤسس الحقيقي والعقل المفكّر والقوة الدافعة للجمعية البغدادية. كانت الجمعية البغدادية تجربة رائدة في العراق. لم تكن ناديا أو مؤسسة إجتماعية فحسب بل جمعت كل شيء. في الجمعية أصبح بالإمكان وللمرة الاولى مشاهدة السينما العالمية كاعمال فسكونتي وبرغمان وجان رينوار، وفي الجمعية أصبح بالامكان مشاهدة موسيقى الصالة والراعيات الوترية لهايدن وموزارت وبيتهوفن، وفي الجمعية تمكن البغداديون من الاستماع إلى روائع المقام العراقي...) (ص ١٣٧).

(الليبرالية لاتدخل البلد إلى أن يصير مجتمعاً مدنياً ونحن " العراق " مجتمع أهلي. كلام الليبرالية في العالم العربي كلام واهم، الليبرالية تجيء فقط مع المجتمع المدني وعندما يعتبر الفرد نفسه مواطناً. نحن رعية. الانتقال من المجتمع الزراعي إلى المجتمع الصناعي، أو الانتقال من المجتمع الاهلي إلى المجتمع المدني عملية صعبة للغاية.....) (ص ١٦٤).

(لولا انفجار السكان لكانت الارض أجمل وأكثر إنسانية... أنا اريد لكلّ شخص حديقة. ماهي حياة الانسان؟ هل هي أكل وعبادة فقط؟ الاكل والطعام ضروريان؛ أما الموسيقى والرقص فوُلِدا مع الانسان وهما جزء مهمّ من الانسان. الجهد الحقيقي يتعيّن أن يكون على الاستمتاع بالوجود وليس إدامة الوجود فقط... قبل الوفاة يجب على الشخص أن يستمتع بالوجود...) (ص ١٨١).

(كنت أمشي هذه المرة ببطء متأملاً عبث المعيش بين جمهور جاهل وسلطوي، وأخذت أردّد: ماهذا المعيش؟ وماقيمة الوجود لمعيش مرتبك وخائف بين جهلة ووحوش، وإلى متى سيستمر؟ وأخذت أسائل نفسي: لماذا قبل الشعب العراقي في مختلف عصور تاريخه أن يعيش مترهباً من السلطة وخاضعاً لها).

إنهمك رفعة في تلك الفترة "من حياته في سجن أبي غريب " في كتابة كتابه الثاني " شارع طه وهامرسمث " وخصص وقتاً يومياً للكتابة من الفطور حتى الحادية عشرة صباحاً، بعد ذلك يعود للقراءة فيما يتعلّق بموضوع البحث في العمارة والتنظير، واتبع منهجاً صارماً في تنظيم حياته..... هكذا تلعب الصدف في حياة الانسان؛ فلولا مؤتمر عدم قدرات ممارسات الاستمتاع..... قبل ثلاثة آلاف عام من الزمن نجد " ملحمة كلكامش " وقد إختزلت بصورة هائلة علاقة بين عبثية الوجود والاستمتاع:

إلى أين تسعى ياكلكامش
إنّ الحياة التي تبغي لن توجد
حينما خلقت الآلهة العظام البشر
قدّرت الموت على البشرية
واستأثرت هي بالحياة
أما أنت ياكلكامش فلتكن بطنك
مليئة على الدوام
وكن فرحاً مبتهجاً نهار مساء
وأقم الأفراح في كل يوم من أيامك
وارقص والعب مساء نهار
واجعل ثيابك نظيفة زاهية
واغسل رأسك واستحمّ في الماء
وأفرح الزوجة في أحضانك
هذا هو نصيب البشرية) (ص ٢٦٩).

أظنّ أنّ رفعة الجادرجي عاش حياته مخلصاً لهذه الوصفة الكلكامشية الباهرة، وهو ماتؤكّد عليه كتبه وفلسفته ورؤيته لحياة أرادها ثرية ومتنوعة وتجف أمام ناظريه ولم يبق إلا القليل. كان يؤمن بالاستمتاع بالحياة، ومعجباً بملحمة كلكامش..... بعد تأمين الانسان للطعام والملجأ ومقام مناسب للهوية وتأمين إدامته سيكون سؤال الذات: وماذا بعد هذا البقاء غير الزوال؟ ولماذا هذا البقاء أصلاً..... تستحدث المخيلة في وجودها الدنيوي مفاهيم وأيديولوجيات وطقوساً تسخّرها لدعم قدرات ممارسات الاستمتاع..... قبل ثلاثة آلاف عام من الزمن نجد " ملحمة كلكامش " وقد إختزلت بصورة هائلة العلاقة بين عبثية الوجود والاستمتاع:

إلى أين تسعى ياكلكامش
إنّ الحياة التي تبغي لن توجد
حينما خلقت الآلهة العظام البشر
قدّرت الموت على البشرية
واستأثرت هي بالحياة
أما أنت ياكلكامش فلتكن بطنك
مليئة على الدوام
وكن فرحاً مبتهجاً نهار مساء
وأقم الأفراح في كل يوم من أيامك
وارقص والعب مساء نهار
واجعل ثيابك نظيفة زاهية
واغسل رأسك واستحمّ في الماء
وأفرح الزوجة في أحضانك
هذا هو نصيب البشرية) (ص ٢٦٩).

أظنّ أنّ رفعة الجادرجي عاش حياته مخلصاً لهذه الوصفة الكلكامشية الباهرة، وهو ماتؤكّد عليه كتبه وفلسفته ورؤيته لحياة أرادها ثرية ومتنوعة وتجف أمام ناظريه ولم يبق إلا القليل. كان يؤمن بالاستمتاع بالحياة، ومعجباً بملحمة كلكامش..... بعد تأمين الانسان للطعام والملجأ ومقام مناسب للهوية وتأمين إدامته سيكون سؤال الذات: وماذا بعد هذا البقاء غير الزوال؟ ولماذا هذا البقاء أصلاً..... تستحدث المخيلة في وجودها الدنيوي مفاهيم وأيديولوجيات وطقوساً تسخّرها لدعم قدرات ممارسات الاستمتاع..... قبل ثلاثة آلاف عام من الزمن نجد " ملحمة كلكامش " وقد إختزلت بصورة هائلة العلاقة بين عبثية الوجود والاستمتاع:

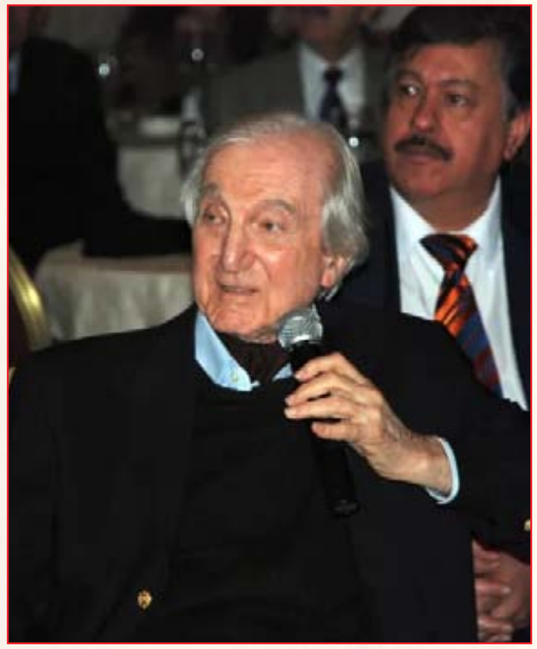

ما هي علاقتي بالمعمار والمفكر أستاذي رفعة الجادرجي؟

- لم يكن الجادرجي مجرد معماري مصمم مباني في بغداد كان مفكراً أشتغل على أسئلة كبرى.
- أسّس رفعة ما يشبه المدرسة الفكرية، لكنه لم يردها مدرسة مغلقة، بل موقفاً معمارياً شاملاً.

معاذ الالوسي

سؤالٌ جميل، لأنه لا يفتح على علاقة تقليدية بين أستاذ وتلميذ، بل على علاقة فكرية طويلة الأمد؛ علاقة حوار، ونقاش، وتحوّل.

لقد وُثّقت هذه العلاقة عمليًا في سنوات العمل داخل مكتب الاستشاري العراقي، كما أشار إليها أستاذي في كتابه عن الأخيضر. لكن ما يهمني اليوم ليس التوثيق التاريخي، بل طبيعة هذه العلاقة ومعناها.

برأيي، علاقتي بالجادرجي لم تكن علاقة تبعية مباشرة، بل علاقة حوار نقدي مستمر.

أولاً: المرجعية الفكرية

لم يكن الجادرجي مجرد معماري يصمم مباني في بغداد. كان مفكرًا اشتغل على أسئلة كبرى:

- الخصوصية والهوية في العمارة العراقية
- العلاقة بين الحداثة والإرث العمراني
- العمارة بوصفها خطابًا ثقافيًا واجتماعيًا

هذا الإطار النظري شكّل أرضية صلبة لجيل كامل من المعماريين العراقيين... وكنتُ واحدًا منهم.

صحيح أن بذور هذه الأسئلة بدأت في دراستي الجامعية، لكن العمل في الاستشاري العراقي عمّق قراءتي، وفتح أمامي أفقًا مختلفًا. بمساعدة أستاذي، وجدتُ طريقي منذ السنوات الأولى، ليس عبر التلقين، بل عبر الممارسة، والعمل المشترك، والنقاش.

ثانيًا: الامتداد المتحوّل

حين تفرّغتُ لمساري الخاص، شعرت أنني لم أستلم "مشروعًا جاهزًا"، بل استلمت فكرًا مفتوحًا.

الجادرجي سلّمني منهجًا، لا وصفة. سلّمني أسئلة، لا إجابات نهائية.

لقد أراد– بوضوح – أن تنتقل الفكرة، لا أن تتجمّد. أن تُختبر، وتُفكك، ويُعاد تركيبها وفق زمن مختلف، أكثر انفتاحًا على التجريب، والمواد، والسياق المعاصر.

كانت تلك المرحلة مليئة بالمتعة والتحدي، رغم منغصات الواقع وتعقيداته وسلطاته المتعددة. لكن ما بقي راسخًا هو الإيمان بأن العمارة ليست شكلاً، بل موقف.

من "المدرسة" إلى "الموقف»

أسّس الجادرجي ما يشبه المدرسة الفكرية، لكنه لم يردها مدرسة مغلقة، بل موقفًا معماريًا شاملًا:

- موقفًا من المدينة
- موقفًا من الذاكرة
- موقفًا من حداثة غير مستوردة
- موقفًا ينحاز إلى قضايا الناس

أهم ما في هذا الموقف أنه يستهدف الفرد في المجتمع، ويؤكد الدور الريادي والمسؤول للمعمار في عمران المدينة.

فالعمارة — كما تعلمت — خارج الإنسان لا وجود لها.

إنها انحياز للحياة، وإصرار على التغيير نحو الأفضل.

علاقة احترام... ومسافة نقدية

من هنا، أصبحت علاقتي به علاقة مهنية حيّة: احترام عميق، لكن مع مسافة نقدية.

ألفة متبادلة، ولكن مع استقلال في الرؤية.

دائمًا كان هناك سؤال كبير وضع إطاره أستاذي، وكأنه عهدٌ ثقيل. حاولت أن أكون الحامل والمجيب — لكن بإجابات جديدة، كما أراد هو.

إذا أردتُ اختصار المسألة عمليًا:

الجادرجي وضع القواعد.

ومهمتنا أن نستخدمها، ونفسّرها، ونعيد اختبارها.

وأجمل ما في هذا الإرث أنه لا يُقرأ كسلسلة نسب، بل كسلسلة أسئلة تنتقل من جيل إلى جيل.

نحو الاستمرار

وثّقتُ هذا الفهم في كتابي

بيان وتبيين في العمارة

لأنني أؤمن أن هذه العلاقة ليست مغلقة ولا محسومة، بل قابلة لإعادة القراءة من أزمنة ومواقع مختلفة، وربما من أجيال قادمة.

ويسعدني أن هذا النوع من العلاقات المهنية الهادئة، غير الانفعالية، التي تحترم الطرفين، هو بالضبط ما نحتاجه في بيئتنا المعمارية اليوم.

ربما نفتقد مثل هذه العلاقة في المنطقة، إلا في تجارب نادرة.

خلاصة القول

العلاقة لم تكن تأثيرًا شكليًا، بل نقلًا لمنهج التفكير.

إنها دعوة مفتوحة للسؤال:

من يستمر في سبيل اكتشاف خصوصية المكان؟

وهل الهوية تُورَّث... أم تُكتشف باستمرار؟

وأستعير هنا ما جاء في تقرير التعليم: ذلك الكنز المكنون

برئاسة جاك ديلور،

حيث يُنظر إلى التعليم بوصفه كنزًا مكنونًا، ينتقل لا كمعرفة جامدة، بل كقدرة على الفهم والتجدد.

وهكذا كانت علاقتي بأستاذي رفعة الجادرجي: كنزًا فكريًا... ومسؤولية مفتوحة.

رفعة الجادرجي والنظرية الجدلية للعمارة

نعمان البياتي

الجادرجي، منظر العمارة العراقية الأول، ويعده البعض فيلسوف العمارة العراقية، من أهم ما أنتجت العمارة العراقية في العصر الحديث؛ أنتج المعماري رفعة كامل الجادرجي العديد من المباني المتميزة وألف كمّاً مهماً من الكتب في التنظير المعماري، ولم يغادر الدنيا إلا وقد حصل على الجوائز العالمية التي دلت على أثره في العمارة العراقية والإقليمية، كجائزة الأغا خان.

نظّر الأستاذ الجادرجي لتوجهه المعماري في العديد من دراساته، ووضح أنه لم يكن يميل إلى الأعمال التي تقوم بتقليد التراث أو الطرز العالمية على حد سواء؛ فهو يصنف الأعمال المعمارية في المنطقة ضمن أربع توجهات رئيسة، الأول هو توجه العمارة المحلية، والتي يصفها بالقروية، والتي يعد المعمار المصري حسن فتحي أهم روادها، والثاني يقوم بصهر المعالم التاريخية والتراثية مع العمارة العالمية في نتاج موحد يستوعب الإثنين، وهذا يمثل توجه الجادرجي، أما الثالث فيتمثل بإنشاء هيكل معاصر مطعم بعناصر منتقاة من التراث، والذي يعد المعمار العراقي محمد مكية أحد رواده، وأما الرابع فيقوم على اعتماد النموذج الغربي والعالمي.

ويورد الجادرجي أدلته على عدم قبوله بجميع التوجهات عدا الثاني، فتوجه المعماري حسن فتحي توجه قروي، وبحسب الجادرجي فإن التراث المعماري في مصر والعراق تراث حضري (تطور في المدن) وليس قروياً؛ أما توجه المعمار محمد مكية فهو يقوم على إلصاق العناصر على هيكل غير متوافق، ولا يعبر عن التطور الطبيعي لهذه العناصر، والإصرار على استحضارها دون الظروف التي أدت إلى إنتاجها وزوال الظروف المنتجة لها أصلاً، يعد حلاً ضعيفاً؛ كما يرفض الأستاذ التوجهات الحداثوية العالمية المنكرة لحضور المجتمع المحلي وتأثيره في العمارة. اقترح الأستاذ الجادرجي نظريته المعمارية وسماها النظرية الجدلية ووضحها في العديد من كتبه مثل (شارع طه وهامرسمث، وفي سببية وجدلية العمارة، وحوار في بنيوية العمارة)؛ يفترض الجادرجي أن الشكل في العمارة حصيلة مقررين: المطلب الاجتماعي والتقنية الاجتماعية، وأن العلاقة بين هذين العاملين علاقة تفاعلية وجدلية، وأن الشكل هو الظاهرة المعبرة والناتجة لهذا التفاعل.

فالمقرر الأول هو المطلب، وهو يمثل حاجة المجتمع لهذا الشيء (العمارة)، وليس هذا المطلب نفعياً فحسب، بل هو مطلب تدخل في طبيعته المركبة الاجتماعية، فبالنسبة للجادرجي تنقسم الحاجة إلى ثلاث مركبات: النفعية، والرمزية، والإستاتيكية، فالإنسان يحتاج إلى العمارة، المبنى الذي يحميه من الحر والمطر، ويزوده بالراحة والأمان، وهذا الشق نفعي، ربما يتشابه عند جميع البشر، يليه الشق الرمزي، فالمجتمع لا يريد أي مبنى، بل يريد مبنى يتفاعل معه، ويتواصل معه من خلال علاقات ورموز متجذرة في الثقافة والتاريخ والمجتمع، وأما المستوى الثالث فهو المستوى الإستاتيكي الجمالي، فالإنسان يسعى إلى إشباع حاجته من الجمال في تكوين منشآت ممتعة بصرياً.

يتأثر المطلب الاجتماعي بالتقنية الاجتماعية، إذ يطور كل مجتمع تقنياته، والتي تعتمد على مناخه، والمواد الطبيعية وتقنيات البناء والإنشاء المتوارثة من جيل إلى جيل، وتؤثر هذه المركبة وتتأثر بدورها بالمطلب الاجتماعي، وتنتج العمارة بالتالي بصفتها حصيلة لهذه العلاقة الجدلية؛ لهذا السبب يعارض الجادرجي استيراد التقنية، إذ أنها لم تنشأ في هذا المجتمع التراث المعماري في مصر والعراق تراث حضري (تطور في المدن) وليس قروياً؛ أما توجه المعمار محمد مكية فهو يقوم على إلصاق العناصر على هيكل غير متوافق، ولا يعبر عن التطور الطبيعي لهذه العناصر، والإصرار على استحضارها دون الظروف التي أدت إلى إنتاجها وزوال الظروف المنتجة لها أصلاً، يعد حلاً ضعيفاً؛ كما يرفض الأستاذ التوجهات الحداثوية العالمية المنكرة لحضور المجتمع المحلي وتأثيره في العمارة. اقترح الأستاذ الجادرجي نظريته المعمارية وسماها النظرية الجدلية ووضحها في العديد من كتبه مثل (شارع طه وهامرسمث، وفي سببية وجدلية العمارة، وحوار في بنيوية العمارة)؛ يفترض الجادرجي أن الشكل في العمارة حصيلة مقررين: المطلب الاجتماعي والتقنية الاجتماعية، وأن العلاقة بين هذين العاملين علاقة تفاعلية وجدلية، وأن الشكل هو الظاهرة المعبرة والناتجة لهذا التفاعل.

فالمقرر الأول هو المطلب، وهو يمثل حاجة المجتمع لهذا الشيء (العمارة)، وليس هذا المطلب نفعياً فحسب، بل هو مطلب تدخل في طبيعته المركبة الاجتماعية، فبالنسبة للجادرجي تنقسم الحاجة إلى ثلاث مركبات: النفعية، والرمزية، والإستاتيكية، فالإنسان يحتاج إلى العمارة، المبنى الذي يحميه من الحر والمطر، ويزوده بالراحة والأمان، وهذا الشق نفعي، ربما يتشابه عند جميع البشر، يليه الشق الرمزي، فالمجتمع لا يريد أي مبنى، بل يريد مبنى يتفاعل معه، ويتواصل معه من خلال علاقات ورموز متجذرة في الثقافة والتاريخ والمجتمع، وأما المستوى الثالث فهو المستوى الإستاتيكي الجمالي، فالإنسان يسعى إلى إشباع حاجته من الجمال في تكوين منشآت ممتعة بصرياً.

يتأثر المطلب الاجتماعي بالتقنية الاجتماعية، إذ يطور كل مجتمع تقنياته، والتي تعتمد على مناخه، والمواد الطبيعية وتقنيات البناء والإنشاء المتوارثة من جيل إلى جيل، وتؤثر هذه المركبة وتتأثر بدورها بالمطلب الاجتماعي، وتنتج العمارة بالتالي بصفتها حصيلة لهذه العلاقة الجدلية؛ لهذا السبب يعارض الجادرجي استيراد التقنية، إذ أنها لم تنشأ في هذا المجتمع فإن تأثر بالآف العوامل المؤثرة لذا فهي غريبة عنه، ويورد الأستاذ الجادرجي مثالاً طريفاً لتوضيح أفكاره، فالبوطن العراقي يأكل البامية بطريقة معينة تختلف عن باقي الأمم، فهو يأكلها مع نوع محدد من التوابل دون غيرها، ودرجة طبخ دون أخرى، ويأكلها في صحن له شكل خاص دون غيره، ويأكل الكثيرون البامية باردة في الصباح، ولا يأكلها العراقيون صباح يوم العيد مثلاً مع أنه يأكلها في باقي الأوقات، فكأن البامية ينأسبها وقت دون آخر، ولو تم استبدال المعلقة (أداة الأكل العراقية) بالعيدان (أداة الأكل الصينية) فإن طعم البامية لن يتغير إلا أن العيدان الصينية غير متوافقة تماماً مع ثقافة وطقوس أكل البامية عند العراقي.

العمارة بالتالي نتاج العديد من الظروف الاجتماعية، فكل مجتمعات الأرض مثلاً تملك غرف معيشة في بيوتها، إلا إن طبيعة الفعاليات في هذا الفضاء، وعلاقة أفراد الأسرة مع بعضهم، وعدد ساعات البقاء في الفضاء، ونوع الأثاث وطريقة الجلوس، وخصوصية الفضاء ومكانه ضمن المنزل، وآلاف النقاط التي تنتج عن المطلب الاجتماعي والتقنيات المتاحة، تجعل غرفة المعيشة لكل مجتمع مختلفة عن غيرها، وينسحب الأمر على جميع العناصر المعمارية الأخرى.

يركز الجادرجي أيضاً على عامل التصنيع في الإنتاج المعماري، فهو يتحدث مطولاً عن دور المعماري وأهمية وجوده خلال تحول المادة الخام إلى العنصر المصنّع النهائي، كتحول الخشب إلى كرسي، ويذكر أن المعماري في العصور القديمة كان حرفياً، يدخل في جميع مراحل عملية التصنيع هذه، وكان نتيجة لهذا ما، فإنه جزء من تلك الثقافة وعلى علم بالمطلب الاجتماعي والتقني لها، وعلى معرفة بارتباط العنصر المعماري هذا بالبناء.

ملاحظة أخرى تخص تصنيف الجادرجي للتوجهات المعمارية، فهو يعتبر التوجه الأنسب الذي تندمج في الحداثة وتقنياتها مع المجتمع المحلي وتقنياته، إلا أن أعماله في كثير من الأحيان لا تضم هذا الإنصهار، فمبانى الجادرجي كثيراً ما تكون هيكلاً بسيطاً محاطاً بقشرة من العناصر المشكلة تشكيلاً بصرياً مثل مبنى التأمين في الموصل ومبنى اتحاد الصناعات الوطنية في بغداد، ويظهر تشكيل متنوع المقاييس والأحجام لعنصر معماري واحد، ويصبح الشكل بالتالي تكرارات متناسقة لعنصر واحد، وهو يحوي استعارة مباشرة في بعض الأحيان.

وفي الوقت الذي يعارض فيه الأستاذ الجادرجي توجه المعمار محمد مكية، فإن أعمالها تتشابه أحياناً (وليس دائماً) من خلال العلاقات الشكلية، وعلاقة الهيكل العام والعناصر المضافة إليه؛ وربما يكون أكثر مبنى يعبر عن فلسفة الجادرجي هو نصب الجندي المجهول في بغداد، والذي للأسف تمت إزالته، فقد كان المبنى يعبر فعلاً عن صهر الحداثة الكونكريتية بالمطلب الاجتماعي المحلي من خلال شكل الطاق.

لم يغفل الأستاذ الجادرجي دور التقنية العالمية في تطور أنماط البناء، ورفض الالتصاق بالتراث الذي انتفت تقنياته ومتطلباته، وأكد على ضرورة استعمال التقنية الحديثة ليبقى المبنى ابن عصره، كما لم يغفل أثر المجتمع وثقافته وحاجاته ورمزيته، ودعا إلى عمارة ناتجة عن التطور التحداري للثقافة، وناتجة عن العلاقة الجدلية بين المجتمع والتقنية ليكون المبنى انسانياً وإقليمياً ونتاجاً طبيعياً لتطور المجتمع المحلي ضمن العالم؛ وتبقى أعمال الجادرجي مثالاً على التنظير المعماري المتقدم في العالم العربي، وعلى شخصية أبدعت في مجالي التنظير المعماري وإنتاج الصروح المعمارية الغنية والملهمة لتطوير ناحية مهمة في الثقافة الإنسانية.

رحم الله الأستاذ رفعة الجادرجي.

سيرة المعماري رفعة الجادرجي

جمال العتّابي

محاولات الكتابة العديدة لبلقيس شرارة في تسجيل حياة زوجها المهندس المعماري رفعة الجادرجي جديرة بالانتباه، كسيرة حافلة بالعطاء ومثيرة للجدل، وكمعطى نادر، غير مستهلك، الأمر الذي جعل من هذه الكتابات، أعمالاً تحتل موقع الإثارة، ولعل سيرة رفعة التي صدرت عن دار المدى عام ٢٠٢١ تشكل استعراضاً لما جرى من أحداث مرّ بها العراق منذ البدايات الأولى لتأسيس الدولة العراقية، قدمتها شرارة على نحو سردي، وضمن نسيج روائي، بوصف تلك الفترة هي الأقرب لعمر رفعة الذي تجاوز التسعين، وهي الأهم والأكثر تأثيراً في نشوء الطبقة الوسطى، التي وضعت أسس الدولة والمجتمع والثقافة، تستمد صورها ونماذجها من تجارب عالمية متحضرة.

بلقيس نقلت وقائع حياة وشراكة، بأسلوب متوقد بالحرارة والألفة، والكشف عن روافد معرفة وثقافة للاثنين، تخللتها قصص عديدة تحمل إشعاع الوعي الناضج بالعديد من القضايا في العمارة، والثقافة، والفن التشكيلي، والموسيقى والأدب، والحب والزواج والسفر، والتصوير، يجيء تسلسلها مشحوناً بالحياة، والتدفق الإنساني بوضوح وتألق وبساطة لا إسراف فيها.

وأشد ما يلفت انتباه القارئ لكتاب السيرة، تلك الزوايا الخفية في الحياة الخاصة والعائلية لرفعة الجادرجي، ولاسيما منها تلك المتمثلة بعلاقته مع الأب كامل الجادرجي، وأبلغ ما فيها أنها تعيد للباحث في الشأن السايكولوجي تلك الهيبة الزمنية التي لا تفارقها النظارة الإنسانية، لشخصية وطنية انسجمت مع روح عصرها، ومارست الحياة السياسية بكل تناقضاتها الحادة، ومذاقاتها المتصادمة، زارعاً في آن، وحاصداً في آن آخر.

من المؤكد أن رفعة انتبه الى ما هو مثير ومدهش في حياة عائلته، وهو يحمل قدراً من التأثير في مسارات حياته، ورسم اتجاهاتها، لهذا السبب صدر له كتاب (صورة أب... الحياة اليومية في دار السياسي كامل الجادرجي)، عن مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان، عام ١٩٨٥.

يقول رفعة: إن الصفات السياسية المعلنة لوالده، التي كان يتسم بها أمام الجمهور، كانت أقل من الصفات الأخرى التي لا يعرفها عنه إلا القلّة من أصدقائه، وبعض السياسيين المقربين إليه، هذه الصفات لم تدوّن بعد، لذا وجد حاجة لملء الفراغ في الشأن. المتابع لسيرة رفعة، لا يمكنه المرور سريعاً على تلك اللمحات التي تناثرت في ثنايا الكتاب، وهي تستعيد الأيام والأحلام والذكريات، كي لا يدركها الغياب من طول ما بعدت عنّا ونأت، وإذا بدت لنا من وراء شفيف ضباب السنين، وردية أحياناً، شاحبة بعض الشيء في أحيان أخرى. وفي اعتقادي أن لا إضافة مهمة لما ذكره الصديق خالد السلطاني، بتناوله المنجز المعماري المذهل لرفعة الجادرجي في مقالته (عندما تكون السيرة تمثيلاً للإبداع)، المنشورة في جريدة "المدى"، لذا ذهبت إلى المضامين المشعّة في علاقة الأب بالابن، حيث تشكل حضوراً لافتاً في السيرة. شعر رفعت منذ وقت مبكر تميز شخصية والده عن بقية رجال الأسرة، ولاحظ اختلافه عن الآخرين، يقرأ محاطاً برفوف الكتب، كان أكثر ما يردده على أولاده ضرورة قول الصدق، وتجنب الكذب، وبقدر ما كان شديد التحذير من الكذب، فإنه كان ضد البخل، كريماً يسخر من أصدقائه المعروفين بالبخل، ويروي عنهم حكايات مضحكة، وهو لا يعرف الخوف، لكنه كان كثير الحذر في الترتيب لما يحدث من اختلاطات في أحداث المستقبل المجهول.

في حياة رفعة مناسبت جميلة ورثها عن الأب، كان عاشقاً مفتوناً بالتصوير وروائع الفن، منذ ان أهداه والده أول كاميرا، وهو لم يتجاوز سبعة أعوام من العمر، إذ كان كامل الجادرجي يهوى التصوير الفوتوغرافي، ويحتفظ بالصور في ألبومات حين لم يكن في العراق تصوير أو توثيق فوتوغرافي، إلا بعد الاحتلال البريطاني للعراق عام ١٩١٧، الذي وقف كامل منه ومن الملكية، موقفاً معارضاً منذ البداية، طوال حياته السياسية، وظل يعمل وفق رؤاه ومنهجه السياسي، في أن يكون العراق دولة ديمقراطية، دستورية.

لم يكن رفعة على صغر سنه يؤمن بشعائر شهر محرم، التي تحرص والدته على تأديتها، فأسمعها كلاماً جرح مشاعرها، فأخبرت والده، فبعث عليه وطلب منه الحضور، وكانت هي الطريقة التي يخاطب بها أولاده، فقال له: ليس من حقك أن تتدخل في اعتقاد الغير، اعتقاد أمك أو الآخرين، كان هذا درساً بليغاً لرفعة، ظل بعده يحترم شعائر الدنيا كلها طوال حياته. ولكي لا يصاب بالغرور كان كامل يلجأ إلى النصيحة على طريقة المحاظر، وأسلوب الوعظ والإرشاد.

في إحدى سنوات المتوسطة أكمل رفعة في أحد الدروس، فسأله والده عن السبب، فكانت إجابته، الدرس صعب، فعلّق مقتصراً على القول: إن موضوع الدرس ضمن المنهاج الدراسي الذي لم يبرمج للمعاقرة والأذكياء، بل لذوي القابليات المتوسطة.

تعرّف رفعة على فتاة من أبناء جيله، علم والده أنه يتجول معها مساءً في منطقة الوزيرية، فطلب منه أن لا يعرّض نفسه والفتاة إلى الخطر، وطلب منه إقناعها بأن ترافقه الى داره، وهو ما فعله رفعة، والدرس الأخر الأكثر صرامة، ذلك المتمثل بالتحذير من الزواج بأجنبية، حين كان رفعة يستعد للسفر إلى إنكلترا لإكمال دراسته في الهندسة المعمارية، إياك يا رفعة مهما كان الإغراء، ستكون حياتك الزوجية غير مريحة، في حال عودتك إلى الوطن. لذلك كان زواجه من بلقيس شرارة عام ١٩٥٣، بلا بدلة عرس أو حفل زواج، ولا صورة تلتقط بالمناسبة. عاد رفعة إلى العراق عام ١٩٥٢، وعندما وصل قدّم له والده سيجارة وهو الاعتراف منه بأن باستطاعته التدخين أمامه، بعد ان كان يدخّن من دون علم والده. وكانت سياقة السيارات بسرعة إحدى هوايات رفعة، التي دعت والده إلى أن يوبّخه ذات مرة بالقول: إذا كانت هواية، فالأمر يعود لك، لكن لا تعرض حياة الآخرين معك للموت.

لم ينتم رفعة لأي حزب، رغم تأثره بالأفكار الماركسية، وكان يناقش والده دفاعاً عن الشيوعية، كحل حتمي ضمن التطور الاجتماعي في مراحل التاريخ، فيردّ الأب، أن هذه العقيدة ليست قاطعة في التاريخ من الناحية النظرية، كان رفعة يستشهد بأقوال لستالين، بينما يرى الوالد أن هدر الحريات والديمقراطية في (الاتحاد السوفييتي) يرجع إلى سياسة ستالين بالذات، ولكامل الجادرجي آراء غير إيجابية في شخص يوسف سلمان (فهد) مؤسس الحزب الشيوعي العراقي.

إلا أن أفكار رفعة تحولت نحو الفكر الإنساني الحر، وبدا تأثره واضحاً، في المتغيرات الجديدة في الثقافة والفن منذ منتصف خمسينيات القرن الماضي. وشهد الوضع السياسي في العراق تحولاً نحو إلغاء الأحزاب، وتعطيل الصحافة والبرلمان، وحكم على كامل الجادرجي بالسجن لمدة ٣ سنوات، اضطر رفعة إلى رهن الدار ومقر الحزب الوطني الديمقراطي، وجريدة "الأهالي" في مصرف الرهون لتسديد الديون.

تم الإفراج عن كامل قبل تسعة عشر يوماً من ١٤ تموز/يوليو ١٩٥٨، وكان له علم بما سيحصل من تغيير، بعدها شهدت تلك الفترة عملاً معمارياً لرفعة هو نصب الجندي المجهول، وكان كامل يتوقع زوال حكم عبد الكريم قاسم، ولم يكن انقلاب ٨ شباط/فبراير مفاجئاً له. فطلب من رفعة مغادرة الدار تحسباً لما سيحصل.

استمر كامل الجادرجي ليس بعيد عن المناخ السياسي، معتل البدن، إذ تولت عليه نوبات القلب، بعد أن أكمل السبعين من العمر، فتوفي في الأول من فبراير عام ١٩٦٨، وكان فقدانه خسارة كبيرة لرفعة، لا كأب فقط، بل كمرشد ومفكر سياسي، فقد ترك فراغاً كبيراً في حياته، إذ كانت العلاقة بينهما علاقة خاصة، علاقة صداقة خالية من الخلاف الحاد والنقاش، وتكفي إشارة بسيطة من الأب لأن يعدل رفعة عن قراره.

كانت السيرة نفحة من عطر الماضي بكل ما أنجزه رفعت، في مسرّاته وأحزانه، لكنه مفعم بما حققته الطبقة الوسطى العراقية من ثراء وإبداع في ميادين الحياة، وكان رفعت وأبوه من روادها الأوائل

العدد (6097) السنة الثالثة والعشرون - الخميس (26) شباط 2026

عراقيون
من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

هيئة التحرير
غادة العاملي
رفعة عبد الرزاق

يمكنكم متابعة الموقع الالكتروني من خلال قراءة QR Code:

www.almadasupplements.com
Email: info@almadapaper.net
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

سنين.. بصحبة الجادرجي

د. خالد السلطاني

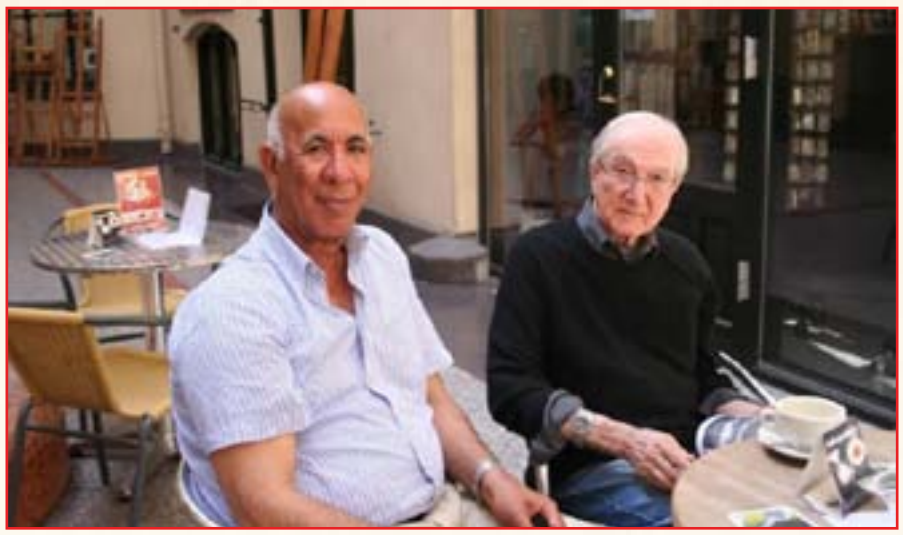

تمر الذكرى المئوية لـولادة "رفعة كامل الجادرجي" (١٩٢٦ -٢٠٢٠)، المعمار العراقي المعروف، ورائد العمارة العربية الحداثية واحد اهم مبدعيها المميزين. لقد كتب الكثير في حق هذا المعمار الحداثي، كما تناول كثر من المهتمين عمارته واوضحوا اهمية ما اجترح رفعة الجادرجي من مقاربة معمارية لعبت دورا مهما في تكريس الحداثة المعمارية وقيمها ان كان ذلك في المشهد المعماري المحلي ام الاقليمي. ولدي ثقة بان كثرا سوف يتناولوا سيرته المهنية في المستقبل ويقيمّوا بموضوعيه دوره الريادي والتجديدي. لكني سأتحدث في هذه المناسبة عن علاقتي الشخصية برفعة من خلال صحبة سنين عديدة مع ذلك الصديق المثقف والمتنور الذي تعلمت منه الكثير.

اعرف رفعة الجادرجي منذ زمن طويل، وبالطبع فاني سمعت عنه بوقت أبكر، فهو المعمار العراقي الرائد، كما هو ابن "كامل الجادرجي": الشخصية الوطنية المعروفة على نطاق واسع بالعراق، والذي يضيف الى اسمه، بالنسبة اليّ على وجه الخصوص، القاً مضافاً وشهرة زائدة. كنت أقدر عاليا منتجه المعماري المهني، وكنت على اطلاع بما كان ينشره من اراء وتقييمات للأفكار وللعمارة ولاسيما في الصحف اللبنانية. لكني لم التق به حينما انهيت دراستي الأولية في الخارج (في موسكو)، وعدت الى الوطن في منتصف الستينات، التقيت به بعد ذلك عندما انهيت دراستي العليا وتعينت بعد ذلك في كلية الهندسة استاذا في القسم المعماري بمنتصف السبعينات. حاولت في تلك الفترة المبكرة من اهتماماتي البحثية حول العمارة العراقية الحديثة ان اقابل العديد من معماريي تلك الفترة. ومن ضمن الذين التقيت بهم المعمار الرائد "حازم نامق" (١٩١٠ – ١٩٩٠)، واذكر باني صورته في بيته ببارك السعدون، رغم انه كان لا يرغب بالتصوير، وكذلك المعمار الرائد "جعفر علاوي" (١٩١٥ -٢٠٠٥)، الذي أمسي صديقا عزيزا لي، أزوره باستمرار في دارته بالمنصور، كما قابلت الكثير من المعماريين الآخرين، بضمنهم بالطبع "رفعة الجادرجي". لقد قابلته، مرة، في بيته بشارع طه في بداية الثمانينات (بعد خروجه من سجن ابي غريب، الذي كان معتقلا فيه لسنين بدوافع كيدية). ما لفت نظري، وقتها، في مسكنه: المكتبة "الهائلة" التي شغلت عدة جدران في الطابق الاعلى النصفي "الميزنين" Mezzanine من بيته الذي صممه ونفذة ضمن حديقة بيت والده "كامل الجادرجي" والمصمم من قبل "بدري قدح": المعمار السوري الذي عمل في بغداد ابان الثلاثينات.

تحدثنا، وقتها، كثيرا: عن العمارة ونظرياتها وكذلك عن روادها الاجانب. ورأيت فيه انساناً مثقفا ومطلعا بعمق وشمولية عما كان يدور في الورشة المعمارية العالمية التي لم يكن كثر مهتمين بها وفي متابعتها. وكانت آرائه التي يطرحها بصراحة وجرأة نادرتين، تلاقي لدى صدىً حسنا، انا المغرم بالحداثة ونماذجها التصميمية، ونظرياتها، هي التي كنت ادرّسها في قسمنا المعماري. واذكر بان لقائي معه وقتها كان بسبب ترشيحي من قبله لأحدى فعاليات "مؤسسة الاغا خان". وعندما استفسر مني عن اسمي ولقبي في جواز سفري لإيصالها الى المؤسسة بالخارج، اعترض على لقبي "السلطاني"، قائلا يتعين تغييره الى "سلطاني" فقط من دون "ألف" و"لام" (بالمناسبة هو يكتب اسمه خصوصا بالإنكليزية <جادرجي>)، مبررا ذلك، بالتخفيف من نطق الكلمة اولاً، ومنح الالقاب نوعا من التنوع والاختلاف ثانياً، والا سيكون مبتدأ جميع القاب العراقيين متماثلاً، يبدأ بحرف الـ (A). ولاحقا عندما سألني صديقي المعمار "ياسر حكمت عبد المجيد"، كيف مرّ اللقاء مع رفعة، اجبته مازحا، باني دخلت الى بيته باسم "خالد السلطاني" وخرجت منه "خالد سلطاني"!.

حينما سافر رفعة للدراسة خارج البلاد، بقيت اتقصى اخباره بين فترة واخرى من اخيه الصديق "نصير الجادرجي". وفي الاردن التي انتقلت اليها في منتصف التسعينات، كنت اقابله عندما يكون في العاصمة الاردنية واحضر نشاطه المهني والثقافي فيها، وكان الشأن المعماري هاجسنا ومركز اهتمامنا المشترك. كان رفعة غزير في الكتابة والنشر، وقد أصدر عدة كتب تناول بعضها سيرته المهنية ونظرته وآرائه في العمارة، وكذلك كتب تناولت في نصوصها موضوعات غير معمارية مثل التصوير الفوتوغرافي، والموضوعات الإنثروبولوجية وغيرها. وارى ان كتابه "الاخيضر والقصر البلوري" (المنشور في ١٩٩١)، أحد اهم الكتب المعمارية الصادرة في العربية، لجهة تعاطيه مع موضوعات متنوعة ورصد احداث معمارية بشكل جريء وباجتهاد وتوضيح جوانب كثيرة خاصة بالمهنة المعمارية في بلده العراق بدءًا من ظهور تلك المهنة ونشاط مهندسيها ومعماريها وحتى "اسطواتها" الى سرد موثق وغزير (بلغ عدد صفحات الكتاب ٥٥٢ صفحة من القطع الكبير) لمقاربته المعمارية وفلسفته التصميمة. ومع الاسف الشديد لم يحظ الكتاب بالاهتمام الذي يستحقه. والكثير من المعماريين العرب، عندما كنت استفسر منهم عنه، لم يسمعوا به ولم يطلعوا على محتوياته. بل وان الكتاب غير معروف تماما حتى في بلده العراق ايضا. واعزو ذلك الى ان تاريخ نشره وتوزيعه تزامن مع سطوة حكم النظام الديكتاتوري وهيمنة سلطته الاستبدادية المطلقة على كل مناحي الحياة بالعراق، وبالتالي فقد "أُبعد" الكتاب من العرض، ولم يجرؤ أحد في بيعه بالمكتبات.

عندما استقريت في كوبنهاغن ببدء الالفية، كان رفعة يسكن في لندن وتحديدا في ضاحية "كينغستون" Kingston. كنا على تواصل بالهاتف على نحو دائم. كان يعلق احيانا على ما انشره فيما يخص الشأن المعماري، واتابع معه اخبار صدور كتبه التي يرسلها لي موقعة بتوقيعه. كان الحديث معه يثريني ويزيد من معارفي تجاه هذه المهنة الجميلة: العمارة. ومرة علق على مقالي الذي احتفيت بـ "ثمانيته" سنة ٢٠٠٦، والذي عنونته "الحداثة اولاً.. الحداثة دائما"، من انه فعلا مؤمن ايمانا عميقا بقيم الحداثة وتوقها نحو التجديد والابداع. ولهذا فقد فهم "التراث" بصورة مغايرة لما كان شائعاً، بعيداً عن تلك الطروحات التي تسعى وراء تمجيد الماضي وتغلق ابواب الابداع والتأويل. لقد رأى رفعة، كما كرر ذلك في الكثير من مؤلفاته سواء في كتاب "في سببية وجدلية العمارة" (٢٠٠٦) ام في كتاب "دور المعمار في حضارة الانسان" (٢٠١٤)، بان مثل ذلك الفهم لا يمكنه ان يؤدي الى آفاق مستقبلية، تلك الآفاق التي يرى فيها رفعة كمعمار حداثي، أهمية المجترح المعماري وقيمته الحضرية والتنويرية. اثناء نقاشاتنا كان دوما يميل لتكريس هذا النهج الطليعي، ويرى فيه فائدة كبيرة للناس وللعمارة. وهو لا يهاب القول، بالمناسبة، بانه بالضد من مقاربة "حسن فتحي" في تعاطيه مع مفهوم "المحلية" وفي ادراكه بتوظيف الموروث البنائي. كان دائما يكرر بانه يقف بالند مع المعماريين الغربيين. وهو لا يخشى انتقادهم كما لا يتقبل رؤاهم باننا علينا ان نظل في منطقتنا "نجتر" الماضي واساليبه، وهم يتمتعون لوحدهم بمكاسب الحضارة والتقدم التكنولوجي. وكانت رؤاه هذه مصدر عون لي، نقدياً، في فرز وتفريق كثير من التوجهات الاسلوبية التي كان المشهد المعماري حافلا بها.

في تموز ٢٠٠٩، مرّ رفعة على كوبنهاغن في طريقه بسفرة سياحية مع آخرين الى النرويج. وبالطبع التقينا عدة مرات قبل مواصلة رحلته الى النرويج وبعدها ايضاً. كانت اوقات صحبته مثمرة وممتعة معاً، وانا احاول ان اريه "مدينتي" وأسعى الى تعريفها وتقديمها له ولزوجته الست بلقيس شرارة. مشينا كثيرا في شوارع كوبنهاغن وتحدثنا كثيرا، وزرنا معالمها. وقدمت له كتابي "مئة عام من عمارة الحداثة" الذي صدر توا في ٢٠٠٩. وابدى ارتياحه لهذا الاصدار. بعد ذلك التقينا بخريف سنة ٢٠١٠ في بروكسل /بلجيكا اثناء مشاركتنا معا لفعالية ثقافية. وقد سألني بعد ان الانتهاء منها، ما هو برنامجكما (وكنت بصحبة زوجتي) في المدينة؟ قلت له لدي قائمة بمواقع تصاميم المعمار البلجيكي "الآرتنوفوي" Art Nouveau الشهير "فكتور هورتا" (١٨٦١ – ١٩٤٧) V. Horta واود ان اشاهدها موقعيا بعد ان كررت خصائص عمارتها مرارا على مسامع طلابي في بغداد اثناء تدريسي لهم مادة نظرية العمارة. قال سريعا وانا ذاهب معكما. ورغم ان الطقس لم يكن مشجعا في حينها، فقد رأيت رفعة وعليه معالم السرور والبهجة ونحن نقف كل مرة في حي من احياء بروكسل العديدة، امام تلك الامثلة الرائدة التي غيرت وجه العمارة وفتحت الابواب مشرعة لظهور التبدلات الجذرية التي شهدتها العمارة في سنين اوائل القرن العشرين.

في بغداد بعد ان ساهمت معه، في تحكيم مسابقة معمارية لمبنى مجلس الوزراء، في منتصف كانون الاول من عام ٢٠١٠، رايت رفعة "المهني"، وهو يتحدث عن انطباعاته وآرائه في التصميم المعروضة. كانت فعلا دروسا مفيدة وممتعة وانا اصغي الى واحد من اهم المعماريين العرب الحداثيين. وقد حاولت ان اصوره كثيرا وهو في حالات وامكنة بغدادية متنوعة وعديدة. اعرف سلفا ستكون تلك اللقطات ذات اهمية خاصة لي ولمهام توثيق العمارة العراقية. بعد ذلك توالت لقائتنا في لندن في "كينغستون" تحديدا. وعندما اصدرت كتابا عنه "رفعة الجادرجي: معمار" سنة ٢٠١٦ بمناسبة تسعينيته، شعرت باني اوفيت "ديني" تجاه هذا المعمار الطليعي، والصديق العزيز، الذي اراه في بعض الحالات قد سبق زمانه، بما اجترحه من عمارة، وما سجله من افكار، وما نادي به من قيم ورؤى!

معروف ان رفعة يهوى التصوير الفوتوغرافي. وله ذخيرة مميزة ومهمة في هذا المجال، وهي الان محفوظة في امكنة امينه. وكان دوما يردد على مسامعي بانه يعرف جيدا من ان مبانيه التي صممها ذات يوم، سوف تتعرض للتغيير والتشويه والتخريب وحتى الى الهدم والزوال. ولهذا فهو يسعى دوما الى توثيقها وتسجيلها فوتوغرافيا، وهو ما قام به خلال سنين عديدة من اعمل تصويريه رائعة لم تقتصر على اعماله فقط، وانما شملت شواهد البيئة المبنية المحلية، هي التي لم يقم أحد غيره في تسجيلها وتوثيقها بمثل تلك البراعة والمهنية والتنوع والكفاءة التي اضطلع رفعة بها. ومع هذا (.. وربما بالرغم من هذا) تبقى عمارته وشواهد ابنيته الكثيرة باقية، تشير، بصورة لا تخطئ الى معمارها القدير، مضفيةً بوجودها قيمة جمالية كبيرة ومميزة الى بيئتنا المبنية.

مرة قال شاعر من القرن الثالث عشر: "تلك آثارنا تدل علينا، فانظروا بعدنا الى الآثار!"

يبقى "رفعة الجادرجي" حاضرا دوما في ذاكرة وقلوب محبيه واصدقائه الكثر، مثلما تظل شواهد مبانيه العديدة تستدعي الى الاذهان اسم وذكرى معمارها!

له الذكر العطر.. والطيب

"22عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

عراقيون من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون